حفل تأبين الدكتور محمد محفل
كلمة أصدقاء الفقيد
الأستاذ زهير محمد ناجي

سيدي رئيس مجمع الخالدين حماة لغتنا الشريفة وتراثنا المجيد...
سادتي أعضاء المجمع...
سيداتي وسادتي ضيوف المجمع...

شرف كبير لمن يمتطي صهوة منبر مجمع الخالدين، مجمع اللغة العربية ليلقي كلمة في حفل تأبين واحدٍ منهم.
اسمحوا لي أن أبدأ كلمتي بقصة رمزية عن الموت والخلود، أسطورة إغريقية لاأذكر متى قرأتها، وفي مرويات ومعتقدات كثير من الشعوب مثلها أو ما في مغزاها.

«كانت سيديب cydippe كاهنة أحد معابد الإلهة حيرا (أو هيرا) زوجة الإله زفس وكان لها ولدان، بيتون (Biton) وكليوبيس (cleopice) رغبت أمهما وقد أثقلت السنون جسدها المتعب بأن تحج إلى معبد حيرا الكبير في بلاد آرغوس الذي أقيمت فيه أجمل التماثيل من الذهب والعاج لهذه الربّة.
وكانت التقاليد تقضي على من يقصد المعبد لتقبل حجته أن يجرّ عربتَه ثوران أبيضان.
فتش الولدان المطيعان عبثاً عن ثورين أبيضين فلم يجداهما، فقام الولدان بجَرِّ العربة إلى أن وصلا إلى آرغوس حيث أتمّتِ الأم مناسك حجّها.
اقترح رئيس الكهنة على الكاهنة (سيديب) أن تصلّي في قدس الأقداس أمام تمثال الربة العجيب، وكان سرور الكاهنة عظيماً... لقد أتيح لها أن تمثُل في حضرة الربّة.
طلبت الكاهنة من (حيرا) أن تبارك ابنيها المطيعين، وأن تخلع عليهما أعظم هباتها..
لم يدُرْ بخَلَد الأم الكاهنة ماهيةُ تلك الهِبَة، كانت تلك الهبةُ هي الموت... أعظمُ أعطيات الآلهة.
لقد هبطت (هيرا) من (البانتيون) مجمع الآلهة، وحملت روحي الشابّين إلى حقول (إيليزيا)... إلى جنة الخُلد... مقرِّ السعداء.
أذكر أنني حين قمت بتدريس المواد الاجتماعية في عام ستين وتسعمئة وألف في ثانوية تدمر... تلك الآبدة الخالدة التي تشمّ فيها عبق التاريخ، وشموخ الكبرياء والكرامة، كنت في ليالي الخريف غير القمرية حين يحلو تأمُّل قُبة السماء المرصَّعة بملايين النجوم، وهو مشهد نفتقده عادةً في المدن، ولا نحسُّ بروعته إلا في تلك السُّهوب الرحيبة، كنت وأنا أتأمل القُبَّة المرصَّعة تمرُق بين الفَينة والأخرى شهب كثيرة رائعة الجمال، كنت أقول: إنها أرواح الناس الطيّبين على شاكلة (بيتونوكليوبيس).. تذهب كل روح منها لتستقر في واحدة من هذه النجوم.
ومَنْ أجدر بأن تعدّ أسماؤهم من حماة تراث الأمة..من الخالدين من حماة لغتها وتراثها وتاريخها، هذا شهاب الأستاذ مؤسس مجمع الخالدين محمد كرد علي ليتني أعرف أي نجم استقر فيه... وهذا شهاب الشاعر خليل مردم بك وهذا شهاب العالم الطبيب حسني سبح وهذا شهاب العلامة اللغوي عبد القادر المبارك... وهذا شهاب أستاذي كامل عيّاد وهذا شهاب أستاذي جميل صليبا وليلى صباغ.. والبطرك أفرام... وشكيب أرسلان وعيسى المعلوف وميشيل خوري ولويس شيخو...
ليتني أستطيع تعداد أسماء الخالدين الذين ارتفعت أرواحهم إلى جنة الخلد... مقرّ السعداء.
اسمحوا لي أن أضيف إلى القائمة روح زميلي وصديقي محمد محفل إلى جنة الرفيق الأعلى يا محمد.. فأنت شهاب آخر نلت أجمل هبة من هبات الآلهة..

سيداتي وسادتي:

الزميل والصديق والأخ محمد محفل هو آخر شهاب انطلق من كنانة مجمع الخالدين في دمشق.. مجمع اللغة العربية لا أعلم أيَّ نجم سيختار من ملايين النجوم ولكنه سيكون واحداً منها.
في حضرة مجمع الخالدين أرجو أن يسمحوا لي عرضاً بأن أضيف إلى تلك الشهب التي ترتفع إلى الأعالي يومياً أرواحَ الشهداء الذين وهبوا أرواحهم للدفاع عن الوطن وعن الشعب وعن الكرامة وعن المستضعفين في الأرض، ومنهم صديقي وزميلي شهيد تدمر خالد الأسعد.

هناك في السماء متسع للأنبياء والمصلحين والحكماء والشعراء والأدباء واللغويين ولكل من يدعو إلى العدل والمحبة والرحمة.
التحقت والفقيد الغالي في عام ١٩٥٠/٤٩ الدراسي في الفوج الرابع من المنتسبين إلى الجامعة السورية الوليدة التي كان تحويلها إلى جامعة حقيقية تضمّ كليات العلوم والآداب وكان توسيعها الثمرة الشهية الأولى بعد جلاء الجيوش الاستعمارية التحقنا طالبين في قسم التاريخ من كلية الآداب وفي المعهد العالي للمعلمين مع مجموعة من الزملاء: رباح نفاخ وهشام الصفدي وحكمت كديمي وعبد الغني غبرة وعدنان العطار وأحمد معتوق ونذير الأتاسي وأربع آنسات كريمات الآنسة الأتاسي والآنسة حسيني والآنسة قتابي والآنسة إسحق، وبقينا أربع سنوات سِمان من أجمل سنوات العمر، ننهل من نبع معارف أساتذة أجلّاء.. نور الدين حاطوم وجورج حداد وكامل عياد وسليم عادل عبد الحق وشاكر مصطفى وقسطنطين زريق وجميل صليبا وحكمت هاشم وشكري مهران وآخرين وتخرجنا في عام ١٩٥٣/١٩٥٢الدراسي بطبل وزمر في حفلة يوم البراميل الشهيرة التي ألغيت دار المعلمين العليا (عش الدبابير) بعدها مباشرة.
كان محمد محفل الأجمل في صفنا والأكثر أناقة والأكثر «حيوية» ديناميكية، كان اجتماعياً من الطراز الأول صديقاً لكل زملائه وبخاصة لأساتذته.. لو لم يكن أستاذه نور الدين حاطوم يحبه ويعجب بصفاته ومناقبه فهل كان يرضى بمصاهرته؟ كان مرحاً تستحب مجالسته ومسامرته وقد ظل كذلك حتى آخر أيامه صديقاً لكل الناس.
وأنتم في مجمع الخالدين الذين عشتم معه عاشرتموه منذ أن أصبح عضواً في مجمعكم الكريم، عرفتموه في آخر أيامه أكثر مني.
كان برجوازياً أصيلاً من عائلة من مترفي حلب ومنعميها بكل ما في الكلمة من معنى، ولكنه انحاز إلى المستضعفين في الأرض كما فعل (جوديا) ملك لاغاش وحمورابي من بابل وتوت عنخ أمون من طيبة واحموس الكاهن المصري النبيل الذي عرف باسم موسى.. وسأقف هنا عن التعداد، فأنتم تعرفون أكثر مني أن غالبية الأنبياء والحكماء والمصلحين ورجال السياسة ذوي القلوب المفعمة بالإنسانية والرحمة كانوا من (النُّخَب) التي انحازت إلى المستضعفين في الأرض.
وأنتم تعرفون الثمن الذي دفعه كثير من أولئك المصلحين من نفي وصلب وقتل..
ولكن الأجمل من ذلك كلّه كان وعيه بسيرورة التاريخ، كان محمد محفل مثل أبناء جيلنا الذين عاشوا يفاعتهم وشبابهم الأول نحو عقدين من الزمان في ظل الانتداب الفرنسي البغيض قد تكونت قناعتهم بفضل ما شاهدوه بأم أعينهم وما شاركوا فيه وهم على مقاعد الدراسة من أحداث، وما تلقوه من أساتذتهم وما كان أروعهم من أساتذة غرسوا فينا (بلاد العرب أوطاني من الشام لبغدان... فلا حد يباعدنا ولا دين يفرقنا لسان الضاد يجمعنا بغسان وعدنان...) أساتذة كبار... كبار: جودت الهاشمي ومحمد البزم وكامل القصاب وعيد سفرجلاني ورشيد بقدونس والمطران يوسف نصر الله والدكتور كامل نصري وعبد الله نيازي،كلكم تعلمون أن رأس الحربة في النضال ضد المستعمر البغيض كان هؤلاء الأساتذة وتلامذتهم وآخرين ليتني أستطيع تعداد أسمائهم كلهم، كان جيلنا كله بفضلهم (مؤدلجاً) ولكن قلة قليلة منه كانت متحزبة كانت البوصلة الموجهة لأعمالهم ولأفكارهم تشير إلى اتجاه واحد.
إن سبب مصائب البشرية كلِّها ومنها مصيبة تخلُّفنا الحضاري هو النظام الامبريالي البغيض وتحررنا، كما تحرر شعوب العالم كله من هذا النظام، هو السبيل الوحيد لتخلصنا من إرث التخلف، هكذا تبنى الشباب اتجاهات فكرية مختلفة اعتقد كل منهم أنها ستؤدي إلى التحرر والنهضة وإعادة أمجاد امتنا... تحولت فيما بعد إلى حزبية بغيضة..
كنا نختلف ونتنازع ونتجادل في السبيل الموصل إلى تكوين وطن عربي متحرر ومتطور وشعب سعيد.. أغلب جيلنا لم يكن يفكر بسعادته الشخصية... بالمكاسب التي يمكن أن يجنيها... كنا نفكر جميعاً بمصير أمتنا وننادي بضرورة تطورها ودخولها في رَكْب الحضارة العالمية واسألوا الكثيرين من أبناء جيلنا الحاضرين هنا.
كان من تقاليد ذلك الزمان تكليف كل طالب بإعداد رسالة تخرج (أطروحة صغيرة) في التاريخ أو في التربية.
أرجوكم تصفحوا رسائل خريجي ذلك الزمان في الأدب والتاريخ والجغرافية وعلم الاجتماع.. كانت كلها هادفة مليئة بالآمال لجيل شاب يريد أن يساهم في نهضة بلده.
كانت رسالة محمد محفل -على سبيل المثال- عن الحرب الأهلية في إسبانيا وصراع الشعب الإسباني ضد الفاشية..

وحين قرر مجلس قسم التاريخ عام ١٩٥٣ اختيار مرشح لإيفاده إلى فرنسا للحصول على الدكتوراه في التاريخ وقع اختيار القسم على محمد محفل. وقلت فيما بعد لأستاذي الجليل المرحوم الدكتور نور الدين حاطوم الذي أشرف على عملية الاختيار: لقد أحسنتم الاختيار يا سيدي.. أخذتم أحسننا، لا لبهاء طلعته ولا لجرأته ولقدرته على الجدال ولا لإجادته للغتين.. بل لوعيه الفكري والسياسي.. سيكون نداً للفرنسيين ولن يجاملهم في قضايا الفكر والتحرر ولن يرقص على إيقاع (مزاميرهم).. مع أصدقائه في باريس ومنهم الدكتور غسان الرفاعي... كان يعرف تاريخ فرنسا جيداً، فقال للأكاديميين اليمينيين ما لا يحبون سماعه... تاريخ الشعب الفرنسي مجيد ولكن تاريخكم ليس كذلك.

وكذلك تاريخكم الاستعماري لا يشرفكم وتاريخكم ضد شعبكم نفسه في أعوام ١٨٤٨ و١٨٧١... ونخبكم الحاكمة تواطأت مع هتلر لقد خنتم (فرنساكم) نفسها منذ مؤامرة مونيخ عام ١٩٣٨ حتى العدوان على سورية ٢٩ أيار ١٩٤٥ وها أنتم تدعمون من جديد حرب إبادة الشعب الجزائري... لقد كاع (وكَيَّعَ) الأوساط الأكاديمية اليمينية الفرنسية خافوه وجبنوا عن مقارعته الحجة بالحجة فكان أن غضبوا عليه ورفضوا مناقشة أطروحته واضطروه إلى إكمالها في سويسرا، حتى وهو في فرنسا كانت هواجسه تتمحور حول سورية العربية والوطن العربي وقضايا التحرر والإصلاح...

أرسل لي عام ١٩٥٤ كتاباً عنوانه ملفات تربوية / بطاقات تاريخية من تأليف نخبة من المؤرخين الفرنسيين وأساتذة التاريخ غارودي وبروها وديكلو ودوترى وكلوزيه وآخرين في نقد كتب التاريخ المدرسة الفرنسية التي تزوّر التاريخ... لم يكن راضياً عن كثير من معلومات كتبنا المدرسية... قال لي في رسالته: أنحُ نحوه.. وساهمْ في تقديم خدمة لبلدك حاول مع زملائك تقديم تاريخ مدرسي قائم على التحليل والتعليل والنقد... فكان أن فعلت.

سيدي الرئيس..سادتي أعضاء المجمع...

سادتي ضيوف المجمع...

محمد محفل اختار التاريخ ميداناً لفروسيته.. والتاريخ مادة خطرة... ديناميت يمكنها أن تدمر كما يمكنها أن تبني.

محمد محفل أراد أن يكون أستاذاً للتاريخ.. صاحب رسالة يريد إيصالها للنشء الصاعد ولما كان تعامله مع الكبار من طلاب الجامعات فإنه أراد أن يعلم كيفية كتابة التاريخ وكيفية تفسيره وكيف يمكن توظيفه.. أن يقول لهم: إن التاريخ عِلم نَقْد وتحليل التاريخ له قوانينه... التاريخ يمكن أن يكون علماً موضوعياً يستكشف الماضي لمصلحة الحاضر والمستقبل.

اسمحوا لي بأن اقتبس كلمات قالها الأستاذ محمد كامل الخطيب في تقديمه لأستاذنا كامل عياد في كتاب «مقالات مختارة (ج١ ص١١)».. وفي كل منا جزء من أساتذته الذين علّموه، وهي كلمات تنطبق على محمد محفل (علامتان امتاز بهما كامل عياد ولابد من الإشارة إليهما وهما إيمانه بالتنوير، ثم نزاهته الفكرية فمن إيمانه بالتنوير أي إيمانه بالعقل والعلم ومن إيمانه بالعقل والعلم أي تمسكه بالحرية الفكرية أما نزاهته وأخلاقيته ومناقبيته العالية فقد دفعته نحو أفكار الاشتراكية [بمعنى العدالة الاجتماعية وإلغاء ظلم الإنسان للإنسان لا بمعنى الحزبية الضيق]، مثلما جعلته بعيداً عن «التحزُّب» بالمعنى الضيق لهذه الكلمة فالتحزب يحدّ من الحرية الفكرية مثلما قد يثلم النزاهة أحياناً).

محمد محفل كان كأستاذه كامل عياد كما قال الأستاذ الخطيب أيضاً (كان يكتفي بدور المدرس والموجه الفكري، أما المهمة السياسية المباشرة فقد تركها للآخرين) (ج١ ص١٠).

محمد محفل كان صاحب رسالة وحسب معرفتي به لم يكن متحزّباً....

واسمحوا لي بأن أتلو عليكم ما قاله أستاذنا جميل صليبا في حفل استقبال صديقه كامل عياد عضواً جديداً عاملاً في مجمع اللغة العربية عام ١٩٥٩ وهي تنطبق على ما يمكن أن يقال في محمد محفل: (لقد دعوت كل أيام حياتك إلى حرية الفكر والعدل الاجتماعي، ودعوت إلى السلام والصداقة، ودافعت عن النظام الديمقراطي وناديت بالاشتراكية والتعاون فكنت في كل ما دعوت إليه إماماً يُقتدى به ويهتدى بهديه) (الخطيب: مقالات مختارة ج١ ص١٩).

محمد محفل آمن بما قاله العلامة ابن خلدون: التاريخ علم في باطنه نقد وتحليل وتعليل للكائنات ومباديها دقيق أراد أن يطبق في حياته العملية كأستاذ جامعي وفي كتاباته كمؤرخ هذه القاعدة العلمية التي يعرفها كل مؤرخي التاريخ الحقيقيين من ينكر هذه الحقائق أصحاب المصالح الكبار الذين يعرفون التاريخ جيداً ولكنهم خوفاً من كشفه للحقائق يستخدمونه كأداة لتجهيل الناس أو لتضليلهم أو لاستخدامهم منفذين لسياساتهم المعادية للإنسانية....

محمد محفل منذ بداياته في تعلّم التاريخ ثم قيامه بتعليمه عرف المحاولات التي ترمي إلى تشويه التاريخ وإنكار... (علميته) وإنكار قوانينه الموضوعية، ومنها تلك القوانين الأربعة التي أشار إليها على سبيل المثال مؤسس علم العمران عالمنا العظيم ابن خلدون: التطور والسببية، والحتمية والامكان والاستحالة في أيام الشدة التي تعانيها الأمم كأيامنا هذه ترون وتسمعون كم يبذل أعداء الشعوب والجهلة من جهود لتزوير التاريخ هذا ليس بالجديد ولا بالطارئ... هذا داء أوربي أنتجته الامبريالية في القرن التاسع عشر خدمةً لأغراضها.

(يجب أن يحط من شأن العلم والتاريخ وتنزع صلاحيتهما لأنهما شاهدان لا يحتملان على انحلال النظام الرأسمالي) (غارودي: الوجودية فلسفة الاستعمار ص١٦).

(يجب التأكيد على أن التاريخ ليس علماً ولا يمكن أن يطمح إلى القوانين الموضوعية....) (غارودي: الوجودية ص١٥).

هذا ماوقف محمد محفل... مع آخرين غيره في وجهه أراد أن يقول: إن التاريخ علم له قوانينه.. ويجب أن يستخدم لجلاء الحقيقة التي لا يمكن أن تكون إلا في صالح المظلومين والمضطهدين والمهانين ولا أحسب أن كلمة طلاب الفقيد التي سيلقيها بعدي (وفقاً لبرنامج الحفل) تلميذه المؤرخ الدكتور عيد مرعي سيقول خلافاً لما قلت.

سيدي رئيس مجمع الخالدين...

سادتي أعضاء المجمع... السادة ضيوف المجمع...

اجتمعنا لإحياء ذكرى الراحل محمد محفل عضو المجمع.

لقد بنى الإغريق (بانتيونهم) في أثينا ليمجدوا ألهتهم وحكماءهم وقادتهم وشعبهم وأبطالهم وشهداءهم.

وخلق الفرنسيون -على سبيل المثال- (بانتيونهم) لتمجيد عظمائهم.

وأنشأت الحكومة العربية الأولى عام ١٩١٩ واستجابة لتنادٍ تاريخي حتمي وبجهود علم من أعلامها الرئيس محمد كرد علي المجمع العلمي العربي.

خلال عقود كثيرة اتبعتم في هذا المجمع الكريم تقليداً رائعاً في استقبال الاعضاء الجدد وفي توديع الراحلين إلى جنة الخلد.

في كل مافعلتم في الماضي والحاضر فأنتم حين تحتفلون بوداع مجمعي منكم فإنكم تخلعون عليه هالة المجد والخلود يشير إليه الناس بإجلال واحترام قائلين هذا الراحل خدم أمته بفكره وحمى تراثها وحافظ على لغتها.

ولا يسعني إلا أن اختم كلمتي بشكركم على ما فعلتم، وما في وسعي إلا أن أقول لآل الفقيد ارفعوا رؤوسكم مفتخرين بفقيدكم الغالي وقولوا: لقد كان واحداً من مجمع الخالدين.

* * *